

عن الهرمينوطيقا الرومانسية قراءة في البدايات

د/ تيرس هشام

جامعة سيدي بلعباس الجزائر

من الأمور التي تكاد تحوز إجماعاً بين المهتمين أنّ المفكر والفيلسوف الألماني فريدريش شلايرماخر (1768-1834) كان بمثابة العراب للهرمينوطيقا، وبمثابة موقع أوراق اعتمادها فرعاً من العلوم الإنسانية، إذ يمثل "الموقف الكلاسيكي بالنسبة للهرمينوطيقا، ويعود إليه الفضل في أنّه نقل المصطلح من دائرة الاستخدام اللاهوتي ليكون «علماً» أو «فنّاً» لعملية الفهم و شروطها في تحليل النصوص"¹.

لقد ارتبطت هرمينوطيقا شلايرماخراً أساساً بتحقيق الفهم، وبالتالي رصد الشروط الكفيلة ببلوغه وتحييد العوائق التي تحول دونه، والفهم هنا (أو بالأحرى التفاهم) ليس بمعنى استقبال مضمون ثابت محدّد سلفاً ومعطى قبلاً، بل هو تحيين واقعة الفهم ضمن الشروط النفسية والتاريخية والاجتماعية لطرفي التفاهم (المؤلف والقارئ في حالة النص الأدبي) وكذا ضمن شروط الواقعة التي تؤطر عملية الفهم.

فنسيّة الفهم تقوم إذا على محايثته وتفاعله المستمر مع معطيات العملية التواصلية، وسوف نجد فيما بعد، لا سيما عند ديلتاي، أنّ هذا التصوّر سيخرج الهرمينوطيقا من مجال التعامل مع النصوص فقط، إلى فلسفة عامّة تطرح إشكالات الفهم وبالتالي التواصل الإنساني الذي هو منطلق العلوم الإنسانية وديدها.

إنّ محقق الكتاب التراثي مثلاً، يدخل في عملية هرمينوطيقية مع الأثر المحقق ممّا يجعل الكتاب بعد تحقيقه نصّ المحقق، لا سيما إذا امتازت المخطوطة بكثرة التصحيحات والفراغات، لأنّ المحقق سيثبت ما يعتقد أنّه لا يدخل في علاقة تناقض مع المؤلف وعصره وأهوائه وميدان اشتغاله وكذا مختلف الأحداث التي طبعت فترة

حياته، كما أنّه إذ يقوم بهذا العمل التّعايشي (أي معاشته لفترة المؤلّف البعيدة عنه تماما) لا يستطيع -ولو أراد- التحلّل بصفة تامّة من الوعي العامّ الذي يسود عصره (إبستيمي عصر المحقّق) ومن ثقافته وايدولوجيّته وموقعه من المؤلّف الذي يعدّ اختياره لمصنّفه تحديدا دالاّ بحدّ ذاته.

إنّ هذا المثال -وغيره كثير- يشي عن سعة العمليّة الهرمينوطيقية ولا يحصرها في التّعامل مع نصّ أيّ نصّ كان، والذي يشفع ما ذهبنا إليه من أنّ العمل المحقّق يتحوّل إلى نصّ جديد للمحقّق، أي إلى نصّ ثان، هو ما يعرف بإشكاليّة المقصديّة، فالحقّق بالرّغم من كلّ نظراته واجتهاداته في الالتجاء إلى أفضل الحلول لا يستطيع أن يأتي بالمؤلّف الأصليّ ليقول: "قد أصاب المحقّق فعلا، فقد أوردت تلك الكلمة، ولم أورد سواها".

وثمة خاصيّة هامّة أخرى تمتاز بها هرمينوطيقاشلايرماخر هي النّزعة الرّومانسية ومن المعروف أنّ قوام هذه الأخيرة هو ترك الحرية للمؤلّف، ليسترسل في سرد التجربة في تفاصيلها الدّقيقة دون تلك العقبات التّعبيريّة التي سادت المرحلة الكلاسيكية، كما أنّ هذا الاسترسال مكفول أيضا للقارئ في التّماهي مع النصّ بما يلاقي التّجربتين لتخرجا في شكل إبداعي جديد غالبا ما ينعت بالانطباعيّ أو التّأثيريّ، وتتجلّى رومانسيّة شلايرماخر "في اعتباره النصّ تعبيرا عن "نفس" المؤلّف وفي مطالبته المفسّر أن يكون ذا طاقة تنبؤية، إلى جانب معرفته باللّغة، حتّى يمكنه اكتشاف الجوانب المتعدّدة للنّص".²

أمّا العبارة الشّهيرة لهرمينوطيقاشلايرماخر الرّومانسية، أو "فهم النصّ كما فهمه مؤلّفه، بل حتّى أحسن ممّا فهمه مبدعه"³، و بالرّغم من السّمعة السيّئة التي تحوزها حتّى عند بعض أقطاب الهرمينوطيقا* فإنّها تتساق مع ما تتأسّس عليه هذه الأخيرة، أي مراعاة تاريخيّة القراءة وكذا الأولويّة المعطاة للنّصوص الغريبة لغويّا وثقافيّا عن

القارئ، لأنّ فهم المؤلّف ووعيه لذاته سيخضع بعد تثبيت الخطاب على شاكلة نصّ إلى أكثر من وعي وفي أكثر من شرط، فتصبح تجربته بذلك مشاعة في الزّمان وفي المكان بعد أن تتجرّد من كلّ بعد تعينيّ أو تشخيصيّ أو ما يعرف بالحيثيّات الظرفيّة للخطاب.

إنّ فهم مؤلّف بأفضل ممّا فهم نفسه لا ينبغي أن يؤخذ بالمعنى المتعالي اللازميّ فهذا الأخير (أي الفهم المتعالي الثابت) يستحيل حتّى بالنسبة للمؤلّف نفسه لأنّه "مشروع في حالة تخلّق، إنّه يفهم نفسه بطريق غير مباشر، إنّه يقوم بجولة هرمينوطيقية (تأويلية) من خلال التّعبيرات الثابتة التي تنتمي للماضي.⁴ أي إنّه ليس معطى قبلياً يعالج التّجارب من جهة نظر محدّدة وثابتة سلفاً شأن المعادلة الفيزيائية التي تسقط على كلّ الظواهر المنتمية إلى نطاقها؛ فإذا كان ذلك كذلك، فالأحرى بوعي القراء المختلفين تجسدياً (أي الاختلاف الشّخصيّ الأمبريقيّ) وزمنيّاً وتداوليّاً وثقافيّاً، أن يكون في حالة تحوّل مستمرة ضمن فعل تواصليّ محايث.

أما ما يختصّ بقراءة النّصوص، فعلى الرّغم من غياب إجراءات محدّدة تقارب بواسطتها، فإنّ هناك رؤية مميّزة في التّناول الهرمينوطيقيّ، إذ يميّز شلايرماخريين منهجين في الممارسة التأويلية: الأوّل يعالج النّص انطلاقاً من لغته (تراكيب نحويّة، لغة إقليمية... الخ)، فهو إذن فنّ إيجاد المعنى الدّقيق للخطاب انطلاقاً من اللّغة وبمساعدها، أمّا الثّاني فهو التّأويل التّفسيّ الذي يستعين بسيرة المؤلّف، أي حياته الفكرية وحوافزه التي دفعته للكتابة، فهو بموقع الأثر في السّياقين الدّاتيّ والتّاريخيّ اللّذين ينتمي إليهما⁵.

إنّ الممارستين في مغزاهما لا تغفلان ما يدور من حول النّص، لأنّهما في النّهاية تشتغلان على خطابه ممّا يستدعي الأخذ بجملة معطيات، لعلّ أهمّها تفاصيل التّثبيت الأوّل، أي بمعنى آخر التّثبيت الذي لا يكون حكراً على لغة النّص وإنّما يكون شركة

بين هذه اللّعة وبين مختلف الشّروط النّفسية والفيزيولوجية والفضائية للتّواصل الأوّل، وكذا العوامل الاجتماعية والثقافية والتّداولية التي تؤطّره.

لقد كانت هرمينوطيقا شلايرماخر التّأسيس الأوّل للهرمينوطيقا فرعاً معرفياً في العلوم الإنسانيّة، ولذلك نجد معظم الجهود التي جاءت بعده لا تخرج عن ثلاثيّة المسيرة أو المخالفة أو التّركيز على جانب معيّن فيها، وهو أمر لولا وقوعه لما تسوّى لها (للهرمينوطيقا) أن تبلغ ما بلغته من خصوبة اقتحمت بها مجالات واسعة على غرار النّقد الأدبيّ.

إنّ التّطوّرات المعرفيّة التي شهدتها الهرمينوطيقا بعد شلايرماخر كانت خطوات حتميّة كما هو شأن أيّة معرفة جديدة واعدة، فبالرّغم من خطواته المركزيّة، أقرّ أنّه لا توجد بعد هرمنوتيك عامّة، تكوّن فنّاً للفهم، بل توجد اختصاصات هرمنوتيكية⁶، وعلى هذا يصير لزاماً تتبّع ما بعد شلايرماخر.

على ذلك وإذا كانت من الأمور الثّابتة في الدّرس الهرمينوطيقيّ مفاهيم من مثل نسبيّة الحقيقة عبر تحيين الفهم ضمن تراكم الشّروط وراهنية الأفق، فإنّ رواد هذا الدّرس كانوا أكثر الأوفياء لانتماءاتهم العلميّة، حيث طوّر كلّ منهم هذا الحقل في ضوء الوعي العامّ الذي طبع عصره، وفي إطار الحاجات المعرفيّة الملّحة التي صبغت التّفكير الإنساني في اللّحظة التي عايشها.

من هؤلاء فيلهلم ديلتاي (1833-1911)، فبالرّغم من أنّه ابتداءً محاولاته "مما انتهى إليه شلايرماخر من البحث عن تفسير وفهم «صحيحين» في مجال العلوم الإنسانيّة"⁷، إلّا أنّ الإبستميّ العامّ لعصره دفع به إلى التّركيز على التّأسيس لفصل يكون بين العلوم الطّبيعيّة أو الدّقيقة وبين العلوم الإنسانيّة، وهو في ذلك يهدف إلى تكسير أطروحة "الوضعيتين اللّذين وحدوا بينهما من حيث المنهج مثل أوجست كومت وجون ستيوارت مل. لقد رأى الوضعيون أنّ الخلاص الوحيد لتأخر العلوم الإنسانيّة

عن العلوم الطبيعية يكمن في ضرورة تطبيق نفس المنهج التجريبي للعلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية، سعياً للوصول إلى قوانين كلية يقينية، وتجنباً للذاتية وعدم الدقة في مجال الإنسانيات⁸.

إنّ هذه الهجمة العلميّة التي اجتاحت حقل العلوم الإنسانيّة كانت مرحلة منتظرة بعد القفزات التي عرفها العالم في مجال التّقنيّة والعلوم جرّاء تعاظم منجزات الثّورة الصّناعيّة التي كانت بحقّ إحدى المحطّات التي لا تتكرّر في التاريخ الإنسانيّ إلّا في سياقات زمنيّة متباعدة وشروط موضوعيّة مختلفة أشدّ الاختلاف.

ولعلّ الوعي الذي تكوّن عقب هدوء عاصفة الثّورة الصّناعيّة (إن هدأت فعلاً) وما خلفته من حسّ يمجّد السرعة والتّجاوز، جعل أسئلة حادّة تتنامى من حول طبيعة الإنسانيات والجدوى من طرائقها، وما يزيد الأمر حدّة أنّ العلوم الإنسانيّة لا تمارس فعل التّجاوز - أكان ذلك تثبيتاً أم نفيّاً - للمعطيات المعرفيّة على عكس العلوم الطبيعيّة التي ديدنها التّجاوز والتّكذيب؛ فبعد مضيّ قرون طويلة، لا زال سقراط مثلاً لم يقل كلمته الفصل بعد، ولا زال يُقوّل حسب كلّ مقوّل، ولا زالت أفكاره تخضع لفهم متغيّر زمكانيّاً وثقافيّاً.

يجرّنا هذا إلى الجوهر الذي أقام عليه ديلتاي تفرقه بين العلوم الطبيعيّة والعلوم الإنسانيّة، فالّتواصل المعرفيّ في الإنسانيّات لا يعدو كونه ضرباً من تلاقي تجارب وبالتالي حدوث فهم معين. وبناء على هذا الأساس، يميّز ديلتاي بين التّجربة العلميّة التي تخصّ علوم الطّبيعة وبين التّجربة المعيشة التي تخصّ علوم الفكر أو العلوم الإنسانيّة⁹.

وإذا كانت التّجربة المعاشة "هي عمليّة الإدراك الحسيّ، وليست الخبرة باعتبارها موضوعاً للتّأمّل العقليّ"¹⁰ بمعنى أنّها غير مستنفدة إطلاقاً، وغير قابلة للتّكرار، سواء على الصّعيد الأنطولوجيّ أو على الصّعيد السيّكولوجيّ، فإنّ هذا ما يجعل حدوث

الفهم رهينا بما يسمّى "« العيش مرّة أخرى » Reliving في الأحداث الاجتماعية"¹¹، وهنا تكمن الصّعوبة الأساسيّة في الإنسانيات، فكلّ تجربة تراد معايشتها من جديد هي تجربة من الماضي.

إن الماضي في العلوم الطّبيعيّة ماض بالمعنى الأركيولوجي، أي إنّ معطى منفصل عن معاينته، فلحظة ظهور فيزياء آينشتاين النّسيّة كانت نقطة الوصول والختام لفيزياء نيوتن الكلاسيكيّة التي أصبحت الآن معطاة بشكل جليّ، في حين أنّ الماضي في العلوم الإنسانية تصنعه التجارب بما فيها التجربة المراد معاينتها، فلا الوعي بالتّجربة الماضية بمنأى عن الحاضر ولا الوعي بالتّجربة الحاضرة بمنأى عن الماضي وتجاربه، ليس لدينا ماض نحمله إلى حاضر، بل هناك ماض يسير بنا عبر تجارب تشكّلنا، إنّهُ القطار الذي كلّما أوقفنا عند "محطّة - تجربة" أخذنا انطبعا عن المسار الذي ينتظرنا وعن المحطّات التي لم نصلها بعد؛ ماضينا هو حاضر قيل وحاضرنا هو ماض لم يُقل بعد.

لقد بدت مرحلة البلوغ المعرفيّ للهرمينوطيقا أكثر جلاء مع ديلتاي، إذ إنّ أفكاره التي صاغها من حول التاريخ والتّجربة والتّفاهم جعلت الهرمينوطيقا تأخذ عنده "بعدا جديدا، وتنصّب على معنى أوسع من مجرّد النصّ"¹² شاملة بذلك كلّ ما ينقل التّجربة الإنسانية المعاشة لتحقيق الفهم الذي هو عماد الإنسانيات وإن كان ديلتايري في النصّ الأدبيّ أفضل مبرز للتّجربة وللحياة الدّاخلية¹³.

تقوم هرمينوطيقا النصّ الأدبيّ عند ديلتايعلى "معايشة التّجربة التي يعبر عنها النصّ، وفي هذه المعاشة يثير فينا النصّ الأدبيّ - عن طريق العرض التخيليّ الحيّ للتّجربة - أحاسيس وأفكارا، مواقف واتّجاهات، متضمّنة في تجربتنا الدّاتية. وفي هذه الإثارة يكمن الجانب الأعظم من الكنز الذي نحصل عليه من الشّاعر"¹⁴؛ فمعايشة تجربة النصّ الأدبيّ لا تخرج بحد ذاتها عن كونها تجربة يشكّل فهمها الماضي بترسّباته،

وتشكّل بمعطياتها فهما للماضي، وهكذا الشأن مع كلّ تجربة ينقلها نصّ أدبيّ، بل مع كلّ تجربة قد ينقلها نصّ واحد في شروط مختلفة.

على هذا الأساس تقوم نسبيّة المعنى عند ديلتاي، الذي يرفض "بناءً على فهمه لمعنى التاريخ - فكرة المعنى الثابت، سواء في العمل الأدبيّ أو الحدث التاريخي" ¹⁵، فكلّ تلاق أو تحاور للذات مع تجربة ما، يخضع لمنطق الاشتراطات التي يختلف تبعاً لاختلافها تشكّل الفهم بعد معايشة التجربة.

هذه النسبيّة في المعنى عند ديلتاي هي صمّام الأمان ضدّ كلّ وصاية دوغمائيّة تفرض عل النصّ، الأمر لذي دفعه إلى تأسيس مبدأ مفاده أنّه "ينبغي أن نفهم النصوص انطلاقاً من النصوص نفسها وليس اعتباراً من المذهب الذي تنتمي إليه، بحيث لا يوجّه المذهب النصّ، وإنّما يستقلّ هذا الأخير بحقيقته عن كلّ توجّه يسجنه ضمن إطاره الخاص" ¹⁶، ومن ثمّ يقوم الفهم على "التطبيق المنهجي لقواعد التأويل من لغة ونحو ومنطق وترجمة وهو ما نسمّيه بالتأويل المطبّق" ¹⁷.

غير أننا إذا سلّمنا بأن لا تناقض بين نسبيّة المعنى وبين إبعاد المذهب ولوازمه عن النصّ، باعتبار إنّ هذا الأخير بنية عائمة تستدعي التّطر من زوايا مختلفة وبالتالي الكشف عن أشياء غير متطابقة، إذا نحن سلّمنا بذلك، أليس من المعقول التساؤل عن الماهية التي تمنح تلك البنية العائمة طبيعتها الاختلافية؟ أو بعبارة أخرى، هل تفيد تلك البنية العائمة في شيء لولا تدخّل الذات وما يصاحبها من تمذهب وتأدلج وثقافة وسيكولوجيّة وموسوعة؟ قد نتفادى تبعات الإجابة عن هذا السّؤال في اعتبار هذه الحلقة المفرغة بعضاً من الأعراض الجانبيّة السلبية للحلقة الهيرمينوطيقية.

لقد خلّف فيلهلم ديلتاي آثاراً بارزة على التّفكير الهيرمينوطيقي طبعّت "فكر كلّ من مارتن هيدجرو جادامر اللذين تأثّرا به إلى حدّ كبير وإن اختلفا معه في نقطة البداية

وكثير من النتائج فيما يرتبط بمفهوم الهرمينوطيقا وأبعادها¹⁸ وهو ديدن الدرس الهرمينوطيقي على امتداد تاريخه واختلاف مشتغليه.

الهوامش:

¹ - نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ص 20.

² - المرجع السابق، ص 23.

³ - Shleimacher ,P.E.outline of the 1814 lectures . in new literaryhistorytransby, 9 p , jan wajcik and rolandhass انقلا عن: المرجع السابق، ص 22.

* يرى ريكور مثلاً أنّ هذا الشّعار هو مهمّة مغلوطة أسندت للتأويل، ينظر: بول ريكور، نظرية التأويل، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط 1، 2003، ص 54.

⁴ - نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، م م س، ص 28 .

⁵ - يُنظر: محمد شوقي الزّين، تأويلات وتفكيكات (فصول في الفكر الغربي المعاصر)، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، صص 33، 34 .

⁶ - سعيد علّوش، هرموتيك النثر الأدبي، دار الكتاب اللبناني (بيروت) / سوشيريس (الدار البيضاء)، ط 1، 1985، ص 16 .

⁷ - نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، م م س، ص 23.

⁸ - المرجع السابق، م م س، ص 24 .

⁹ - يُنظر: محمد شوقي الزّين، تأويلات وتفكيكات، م م س، ص 34 .

¹⁰ - نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، م م س، ص 25.

¹¹ - المرجع السابق، ص 24.

¹² - المرجع نفسه، ص 27.

¹³ - يُنظر: المرجع السابق، ص 27.

¹⁴ - المرجع نفسه، ص 27 .

¹⁵ - نفسه، ص ص 28، 29 .

¹⁶ - محمد شوقي الزّين، تأويلات وتفكيكات، م م س، ص ص 30، 31.

¹⁷ - المرجع السابق، ص 31.

¹⁸ - المرجع نفسه، ص 30.